السنة الرابعة من النبوّة

وفيها نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشعراء: ٢١٤].

قال علماء السير: وأقام رسول الله ﷺ بعد النبوة ثلاث سنين مستخفياً يدعو إلى الله سرّاً في الجبال والأودية والشِّعاب[١]، ولما دعا إلى الله تعالى، استجاب له مَنْ شاء الله من الأحداث وَضَعفَةِ الناس والنِّساءِ، وكَثُرَ من آمن به، وكفَّار قريش غير مكترثين بأمره ولا بما يقول. وكان إذا مر على مجالسهم، أشاروا عليه وقالوا: إن غلام عبد المطلب لَيُكَلَّمُ من السماء. فكان على ذلك حتى عاب آلهتهم، وسفَّه آباءهم الذين ماتوا على الكفر. فشنَّفوا[٢] له عند ذلك، وعادوه، وحسدوه[٣].

وقام بنصرته عمُّه أبو طالب أحسن قيام، ومنعهم من التعرض له.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشعراء: ٢١٤]، خرج رسول الله ﷺ حتى علا المَروَةَ، ثم قال: يا آل فهر، فجاءَتْه قريش وفيها أبو لهب فقال: هذه فهر عندك فقل. فقال: يا آل غالب. فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر. فقال: يا آل لؤي بن غالب. فرجع بنو الأدرم. فقال: يا آل كعب بن لؤي. فرجع بنو عامر بن لؤي. فقال: يا آل مرة بن كعب. فرجع بنو عدي بن كعب، وبنو سَهْمٍ، وبنو جُمَح، أبناء عمرو بن هُصَيص بن كعب، ثم قال: يا آل كلاب ابن مرَّة. فرجع بنو مخزوم وبنو تميم بن مرة. فقال: يا آل قُصي. فرجع بنو زهرة بن كلاب. فقال: يا آل عبد مناف. فرجع بنو عبدالدار بن قصي، وبنو أسد بن عبدالعُزَّى بن قصي، فناداه أبو لهب: هذه بنو عبد مناف عندك فقل. فقال: «إنَّ اللهَ قد أَمَرني أَنْ أُنْذِرَ عَشيرتي الأَقْرَبين، وأنتم الأَقرَبُون من قُريشٍ، وإني لا أملك لَكُم مِنَ الله حَظًّا، ولا مِنَ الآخِرَة نصيباً، وإلَّا أن تَقُولوا: لا إلَه إلَّا اللهُ، فأشْهَدُ لَكُم بها عندَ اللهِ، وتَدينُ لَكُم بها

(١) في (خ) و(ك): والشعوب، والمثبت أقرب للصواب.

(٢) في النسخ: «فسيفوا» والمثبت من «الطبقات الكبرى»، ومعنى شنفوا له: أبغضوه.

(٣) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٦٩.

العَرَبُ والعَجَمُ». فقال أبو لهب: تبّاً لك، ألهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ السورة[١].

وقال عبدالله بن كعب بن مالك: أقام رسول الله ﷺ بمكة في كل موسم يتبع الحاج في منازلهم بعُكاظٍ، ومَجَنَّة، وذي المَجاز، يدعوهم إلى الله وأن يمنعوه حتى يبلِّغ رسالات ربه، ولهم الجنة فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه. وأبو لهب يمشي خلفه ويقول: لا تطيعوه فإنه كذّاب صابئ. فيردون على رسول الله ﷺ أقبح مردٍّ ويقولون: أُسْرَتُك وعشيرَتُك أعلم بكَ حيث لم يمنعوك[٢].

وفي رواية طارق المحاربي: ورأيت خلفه رجلاً قد أدمى عقبيه بالحجارة وكعبيه، قال طارق: من هذا؟ قالوا: غلام بني عبد المطلب. قلت: والذي خلفه؟ قالوا: عمه أبو لهب[٣].

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «كُنتُ بَين شَرِّ جارَيْنِ: أبي لَهَبٍ وعُقبَةَ بنِ أبي مُعَيْط، إنْ كانَ لَيَأتيانِ بالفُروثِ فَيَطرَحانِها على بابي، فَأَخرجُ فأقُولُ: يا بَنِي عبد مَناف، أيُّ جِوَارٍ هذا؟ ثُم أُلقِيْها في الطَّريق»[٤].

وفيها: ضَرب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رجلاً من المشركين فشجه. وسببه: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشِّعاب والأودية فيصلُّون، فبينا سعد رضي الله عنه في جماعة من المسلمين يصلُّون إذ رآهم رجل من الكبار ومعه جماعة من قريش، فسبُّوهم وعابوهم، فضرب سعد رضي الله عنه رجلاً منهم فأسال دمه، فكان أول دم أُهريق في الإسلام[٥].

وكان النبي ﷺ إذا جلس في المسجد وحوله المستضعفون من أصحابه مثل: عمار

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ١/ ٥٥-٥٦ ، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١/ ١٣٦ ، وأخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨) مختصراً.

(٢) كذا في النسختين (خ) و(ك)، وفي «الطبقات» ١/ ١٨٤ : يتبعوك،وهو الصواب ، وأورده ابن هشام في «السيرة» عن ربيعة بن عباد ٢/ ٥٠ .

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٧١ ، والبلاذري في «أنساب الأشراف» ١/ ١٤٩ .

(٥) انظر «تاريخ الطبري» ٢/ ٣١٨، و«المنتظم» ٢/ ٣٦٧ .

ابن ياسر، وخَبَّاب بن الأَرَتِّ، وصهيب بن سنان، وبلال بن رباح، وعامر بن فُهَيرة، وأشباههم. فإذا مرت بهم قريش استهزؤوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه قد منَّ الله عليهم من بيننا. فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1] [الأنعام: ٥٣].

وقال هشام: أول من أظهر الإسلام بمكة: أبو بكر رضي الله عنه وبلال وعمار وصهيب وخبَّاب رضي الله عنهم. فأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الباقون فلم يكن لهم عشائر يمنعونهم، فعذبوا عذاباً شديداً، وفيهم نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾[النحل: ٤١]، كانوا يُلْبِسونهم أدراع الحديد، ويصهرونهم في الشمس في وقتِ الهاجرة[2].

فَقَد أبو طالب رسولَ الله ﷺ، فقال لفتيان بني هاشم: خذوا سلاحكم، وكونوا على مكاناتكم حتى أرجع. وخرج إلى الجبل ونادى: يا محمدُ. وإذا بالنبيِّ ﷺ قائم يصلي في أسفل مكة، فقال له: مالك يا عم؟ فقال: ظننت أنك قد اغتلت، فكدت أن تجرِّمني فأقتل قومي اليوم. وأن النبي ﷺ عرض عليه الإسلام، فقال: أريد آية. فقال: ترى تلك الشجرة؟ فقال: نعم. فقال: أدعو ربي أن يأتيك بها؟ قال: فافعَل، فدعا الله، فأقبلت تهتز بإذن الله تعالى، فقال لها: ارجعي بإذن الله. فرجعت. فقال: يا ابن أخي، لهذا يقول قومُك بأنك ساحر. فانطلق به أبو طالب إلى مجالس قريش وقال: اليوم أؤيسهم منك، ووقف عليهم وقال: قد كنت أُراكم قتلتم ابن أخي، ورب البيت الحرام والبلد الحرام لو فعلتم ذلك؛ لقتل كل واحد من هؤلاء الفتيان جليسه، ثم قال: أخرجوا أشفاركم، فأخرجوها. فلما رأت قريش ذلك يئسوا من رسول الله ﷺ[3].

ولما اشتد الأمر وعلمت قريش أن أبا طالب لا يُسْلمه إليهم ولا يخذلُه، مَشَوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ـ وكان من أجمل فتيان قريش وأَسْراهم ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا أنْهَدُ فتى في قريش وأجمله، فخذه واتخذه ولداً وسلّم إلينا محمداً، فإنه قد

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ٢/ ٢٩ ، و«حلية الأولياء» ٢/ ٢٤-٢٥ ، و«الاكتفاء» ١/ ٣٧٤ .

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ٣/ ٢١٤ ، و«المنتظم» ٤/ ٢٩٨ .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٧٢ نحوه ، أما انصياع الشجرة لأمره ﷺ فقد ورد بذلك عدة أحاديث، انظرها في «دلائل النبوة» ٦/ ٧ ، و«سبل الهدى والرشاد» ١٠/ ١١٧ .

خالف دينك ودين آبائك، وفرَّق جماعتنا، وإنما هو رجل برجل، فقال أبو طالب: ويحكم، لبئس والله ما سمتموني، أتعطوني ولدكم أَغْذوه لكم، وأعطيكم ولدي تقتلونه، والله ما أنصفتموني، فرقوا بين النوق وفصلانها، فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها، دفعته إليكم[١]، ثم قال[٢]:

واللهِ لـن يـصـلـوا إلـيـكَ بـجَـمْـعِـهـم ... حـتـى أُوَسَّـدَ فـي الـتُّـرابِ دَفِـيـنـا
فـاصـدعْ بـأمـرِكَ مـا عـلـيـكَ غـضـاضـةٌ ... وَابْـشِـر وقَـرَّ بـذاكَ مـنـك عُـيـونـا
وعَـرضـتَ ديـنـاً لا مَـحَـالـة أنـه ... مـن خـيـر أديـانِ الـبـريَّـة ديـنـا
لـولا الـمـلامـةُ أو حِـذارُ مـذمَّـةٍ ... لَـوَجَـدْتـنـي سَـمْـحـاً بـذاك ظـنـيـنـا

فصل وفيها توفي

أَكْثَم بن صَيْفي[٣]

من تميم، حكيمُ العرب، كان من بطن يقال لهم: بنو شُرَيف بن جُرْوَةَ، أدرك مبعث رسول الله ﷺ، وأوصى قومه باتِّباعِه، وعاش مئتي سنة، وقيل: مئة وتسعين سنة، واسودَّ شعره، ونبتت أضراسه، وعاد شابًّا، ولا يُعرف في العرب أعجوبة مثله، وكان حكيماً فصيحاً لبيباً فاضلاً سيداً في بني تميم، وهو القائل: [من الطويل]

وإن امـرَأً قـد عـاشَ تِـسـعـيـن حـجَّـةً ... إلـى مِـئـة لـم يـسـأمِ الـعـيـشَ جـاهِـلُ

ولما بلغه خَبر رسول الله ﷺ، عزم على قصده، فمنعه بنو تميم، وقالوا: أنت سيدنا وكبيرنا، فابعث إليه. فكتب إلى رسول الله ﷺ مع ابنه حُبَيش بن أكثم: باسمك اللهمَّ، من العبد أَكْثَم إلى العبد. أما بعد: فأخبرنا من أنت، وبم جئت؟ وقد بلغنا عنك خبر، فإن كنت أريت، فأرنا، وإن كنت عُلِّمْتَ، فعلِّمنا، وأشركنا معك في خير والسلام.

---

(١) انظر القصة دون الشعر في «السيرة» لابن هشام ١/ ٢٤٠-٢٤١ ، و«أنساب الأشراف» ١/ ٢٦٦-٢٦٧ ، و«المنتظم» ٢/ ٣٦٩ .

(٢) انظر الأبيات في «تاريخ اليعقوبي» ٢/ ٣١ ، و«البداية والنهاية» ٣/ ٤١ ، ولم نقف على سياق للقصة يجمع الشعر مع الحادثة.

(٣) انظر «المعارف» ص٢٩٩ ، و«المنتظم» ٢/ ٣٧٥ ، و«الإصابة» ١/ ١١٠ .

فكتب إليه: «من محمد رسول الله إلى أكثم. أما أنا فمحمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، عبدُ الله ورسوله. وأما الذي جئت به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾الآية [النحل: ٩٠]، وإن الله أمرني أن أقول: لا إله إلا الله، ولتعلمَنَّ نبأه بعد حين، والسلام».

فلما قرأ كتابه، قال: نسب وسيط، وأراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا أذناباً.

ثم جمع أَكْثَم بني تميم، وقال: لا يحضرني سفيه، فإن السفيه واهي الرأي وإن كان قوي البدن، ولا خير فيمن كان كذلك، وإن بتمام العقل تتم الأمور، ثم أمرهم بالإسلام، واتباع رسول الله ﷺ. فقام مالكُ بنُ نُويرةَ اليربوعي وهو يقول: إن هذا الشيخ قد خَرِفَ، إنه ليدعو إلى الفناء والتعرض للبلاء، فإن أجبتموه فَرَّق جمعكم، وذَلَّل عِزّكم، وأظهر أضغانكم. وسمعه أَكْثَم فقال: دعوا كلام هذا الأحمق، فويل للشجي من الخَليّ، إن الحَقَّ إذا قام دمغ الباطل.

وخرج أَكْثَم إلى مكة يريد لقاء رسول الله ﷺ، فلما كان ببعض الطريق عمد ابنه حُبيش إلى الرواحل فنحرها، وإلى المَزادة فشقها، ثم هرب. فمات أَكْثَم بالعَطَش، ولما أيقن بالموت، أوصى من معه باتباع رسول الله ﷺ، وأشهدهم على نفسه أنَّه مسلم.

روي عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه نزل فيه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء: ١٠٠].

ومن كلام أَكْثَم: أوصيكم بتقوى الله، وصلة الأرحام، وإياكم ونكاح الحمقى. وإنَّ العُدْمَ عُدْمُ العقل، لا عُدْم المال. وإنَّ مقتل الرجل بين فكَّيه، وإنَّ قولَ الحق لا يدع لقائِله صديقاً. ومن صَحِبَ الدُّنيا رأى الهوان، وفي طلب المعالي يكون العز، ومن قنع بما هو فيه قَرَّت عينُه. والتغافُلُ من أَخلاق الكرام، والمَنُّ يُذْهِبُ الصَّنيعةَ. ومن ظلم يتيماً ظلم أولاده، ومن سل سيف البغي أُغْمِدَ في رأسه.

وقال لبنيه: يا بني، ذَلِّلوا أخلاقكم للطالب، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خُلُقٍ تذمونه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتَحلَّوْا بالجود تلبسكم المحبة، ولا تلبسوا البخل فتتعجلوا الفقر.

وصَيْفي بن تميم، كنيته أبو أَكْثَم، عاش مئتي سنة وستًّا وخمسين سنة.

وحَنظلة الكاتب هو ابن أخي أَكْثَم، لأنه حَنظلة بن ربيعة بن صَيفي، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وعاش إلى أيام معاوية.

وَرَقة بن نوفل

ابن أسد بن عبد العزى بن قصي، ابن عم خديجة رضي الله عنها، ولما رأى النبي ﷺ، وسمع كلامه، وانصرف عنه، قال ورقة لخديجة رضي الله عنها: قدوس قدوس، والله لئن صدَقْتِني فإنه نَبي هذه الأمة، ولقد جاءه النَّاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، فقولي له: ليثبت. فرجعت خديجة رضي الله عنها، فأخبرت رسول الله ﷺ، فسُرِّي عنه بعض ما كان فيه من الغم[١].

وسئل رسول الله ﷺ عن ورقة، فقال: «رَأَيتُه في المَنَام وعَلَيه ثِيَابٌ بيضٌ»[٢].

ومن شعره[٣]: [من البسيط]

يا للرجال وصَرْف الدَّهْر والقَدَرِ ... فما لِشيءٍ قضاه الله من غِيَرِ

جَاءت خديجةُ تَدعُوني لأُخْبِرها ... ومالنا بخفيِّ الغَيْبِ من خَبَرِ

بأنَّ أحمدَ يأتيهِ فيُخْبِرُه ... جبريلُ أنَّك مبعوثٌ إلى البَشَرِ

فقال حين أتانا منطقاً عجباً[٤] ... تَقِفُّ منه أعالي الشعْر والبَشَرِ

إني رأيت أمينَ الله واجَهَني ... في صورةٍ كَمُلَت من أَهْيَبِ الصُّوَرِ

فقلتُ ظني وما أدري يُصَدِّقُني ... أن سَوفَ يُبعثُ يتلو مُنْزَل السُّوَرِ

واختلفوا على أيِّ دين مات على أقوال: أحدها: على النصرانية، والثاني: مُوَحِّداً على دين عيسى وموسى عليهما السلام، والثالث: على الإسلام. وورقة آخر من مات في الفترة، ودفن بالحَجون.

---

(١) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٢٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٣٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر الأبيات في «السيرة» لابن إسحاق ص١٠٤، و«أخبار مكة» للفاكهي ٤/ ٨٩، و«دلائل النبوة» للبيهقي ٢/ ١٥٠.

(٤) في النسخ: «فقلت حين أتانا معطفاً عجباً» والمثبت من المصادر.